للنساء الى عاشق لله ، نقل الصور الجنسية الحسية التي تمتع بها في شبابه الى تجربة عشق الله التي عاشها في كهولته . غير ان توفيق زاوج ما بين التجربتين على طريقته الخاصة . فكان في تجدد الشهوة الجنسية كل مرة بعد انقضائها ، موازٍ له لتجدد الشهوة الالهية كلما تبددت عند ذرى اليأس .

قد يقال ان هذه التجربة الصوفية، الملأى بالجراح، تعود في الاصل الى نشأة الشاعر الدينية . ولكن لنا ان نقول ايضا انها تعود في الاصل الى كون الشاعر فلسطينيا ، نشأ في الجليل والقدس ، مما جعل توحده بالمسيح سهلا وعميقا .

وفي خروجه من ارضه كان بؤسه لا بؤس الاقتلاع من الارض وحسب ، بل الاقتلاع من المسيح ايضا. والفتاة ك ، بعد عشر سنوات من هذا الاقتلاع ، تصبح ضربا من عنصر اضافي في كيميائية هذا الالم المعقد ، بحيث يقول لها :

أجئت تعيدين عليّ
مأساة بلادي ؟

ولذا فان بؤسه في من يحب ، هو بؤسه في الله والوطن . تجربة فذة للايمان والقطيعة ، للتوق والرعب — تجربة تتجدد ولا تنتهي . ولكن في القلب منها جوهرا صلبا يتحمل الضغوط المتزايدة ، يبلغ حافة التهشم ، ولا يتهشم .

* * *

عالم توفيق صايغ الشعري ، اذا ما دخلناه ، ولو بعد لأي ، لا بد لنا من ان نسلم برموزه ، ونرضى بلغته ، لندرك فداحة العبء الذي حمله ، لندرك أن شعره ، بعبارة كافكا ، انما هو « غناء من الجحيم » ، وانه وثيقة نفسية مظلمة ، مدهشة. فلئن يفترض في الشاعر ان يمجد الحياة فان هنا شاعرا يمجدها سلبا : يمجدها بالتأكيد على ما جردته منه ، بالتأكيد على ما رفض به من عذاب وعبث من اجل الحياة نفسها .

لم يمض وقت طويل بين «القصيدة ك» و«المعلقة». سنة واحدة ، ربما، لا اكثر . واذا التجربة العاتية التي افترض الخلاص منها في « القصيدة » ، ما زالت عقابيلها فراشا له من الشوك . كل ما قاله لم يف بحاجته ، وكان عليه ان يعيد الكرة ، على نحو آخر ، في « المعلقة » ، ليضع حياته نفسها في منظور معين عساه ان يفهمه هو . ربما كان المتوقع ان يجعل موضوعه مرة اخرى الحبيبة والوطن والله : ولكن العنصر الجديد هنا كان مهما : الام . كان متوقعا ان تقذفه تجربة الغضب على المسيح لهجره اياه الى العودة الى المسيح من جديد ، ولكن اعترافه الآن بات كاملا ، فكشف عن حبيبة اخرى — أمه . واذا وجوده انما هو قائم بين مريمين ، كلتاهما مريم الاحزان ولكن احداهما «مريم الهدوء» والاخرى «مريم الصخب»، الواحدة « مريم البذل والوقاية » والاخرى « مريم تطلب كل يوم ضحية » ، انهما « مريم القلب ومريم الجسد » ، وكلتاهما مريم الحب : أمه وكاي . وبعد وفاة أمه ، فانه ما فتىء يراها رافعة سيفا من نار كالذي كانت تقيه به ابان حياتها ، بيد ان الحبيبة تقابلها الان بسيف مثله من نار ، استحواذا عليه :

والتقى السيفان في
شبه صليب
رفعت عليه ،
ولا باكيات
ولا محنطات
ولا من يدحرج الحجر .

وهو لا يرى حياته بين هذين القطبين كمسيح مصلوب وحسب ، دون الباكيات على المسيح ، بل يراها دائما ، « تلاحق نار ونار ، زماني أؤرخه بالنار. » وذكر النار يسري في ثنايا القصيدة كلها. والتهاويل الانجيلية التي يصور بها تجربته تجعله مدوما في دوامة عيسوية لا يعرف لها ما يستطيع وقفها .

كل ليل من جديد
أطارد أحاكم
أعذب أقاد للمقصلة ،
كل صبح من جديد
أطارد ولا هارب
أسعى ولا كأس
أتعكز ولا محجة .
أدوّم في فراغ
لا أهدأ أو أشل .
مقعد ، ولا
أهل ولا
بيت حسدا ،*

---

* المقعد الذي شفاه المسيح عند بركة بيت حسدا في القدس (انجيل يوحنا ، الفصل الخامس) كان « سقيما » منذ ٣٨ سنة . والذي يلفت النظر ان الشاعر ، عندما كتب هذه الكلمات ، كان عمره أيضا ٣٨ سنة .